بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(٧) مظاهرُ الحياة قُبيلَ مولِده الشَّريف
لماذا كانتِ البشريةُ في انتظار محمَّد (صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ)؟

بقلم الدكتور/ أحمد علي سليمان

عضو المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية

مِن تمام فَضل الله تعالى على البَشر أنه لم يخلقْهم ويرزقْهم ويتركْهم سُدًى، يَهيمون على وجوهِهم في البَرِية؛ بل رسمَ لهم- وهو أعلمُ بمَن خلق- الطريقَ الذي يضمنُ لهم الصلاحَ والفلاح، ويَقيهم الهلاكَ والوقوعَ في المعاصي، فأرسل الرسلَ بالرسالات المتعاقبَة؛ يُبشِّرون ويُنذرون، ويُنيرون للناس سبيلَ الله.

وكان تمامُ الرسالات السماوية وكمالُها في رسالة سيدنا محمد (صلَّى اللَّهُ عليهِ وآلِه وسلَّمَ) الذي أرسله اللهُ تعالى رحمةً للعالمين في وقتٍ بلغتْ فيه البشرية شأوَ غَيِّها وضلالها.

وإنَّ المتأملَ في تاريخ الحضارة الإنسانية قبيلَ مولدِه الشريف، وما كان عليه حالُ البشرية وقتئذٍ، مِن جاهليةٍ خيَّمت بظلالها الوَخيمة على شتى نواحي الحياة (الاجتماعية، والاقتصادية، والدينية، والسياسية،...)، والتي تمثَّلت في: استبداد واستغلال، وقَهر وظلم، وصراعاتٍ مقيتَة، وحروبٍ لا تنتهي، وما حدثَ في حروب (البَسُوس)، (دَاحِس والغَبْرَاء) وغيرها ليست منَّا ببعيد؟!. حربُ (البَسُوس) نَشبَت بسبب ناقةٍ دخلت حِمى رجُل، فكسرتْ بيضَ حَمامٍ، فرمى ضَرْعَها بسَهْم، فقتله صاحبُها، فدارتِ الحربُ الضروسُ أربعين سنة، حتى ضربت العربُ بشُؤمها المثَلَ[١]. وحربُ (دَاحِس والغَبْرَاء) حدثتْ لأتفه الأسباب بين قبيلتيْن ثمَّ توسَّعت بين قبائل كثيرة، بسببِ أنَّ فرسًا سبقَت أخرى في سباق، واستمرَّت لمدة أربعين[٢] سنة!.

لقد أمسَتِ الأمور -والحالةُ هذه- على نحوٍ غريب، حيث سيادةُ مفاهيم الاستعلاء والبقاء للأقوى، وانحسارُ الأمن، وإلفُ الخوف وعدم الاستقرار. نعم، كان العالمُ يَعيش في دَياجر التِّيه والظلام، وكان في انتظارِ مَن ينقذُه مِن التردِّي السَّحيق في مظاهر الحياة، لا سيَّما حقوق الإنسان وغيره، ولعلَّ دفنَ البنات أحياءً فيما عُرف بـ "وأد البنات" مخافةَ العار مظهرٌ مظاهرَ العبثِ آنذاك!.

وكأنَّ البشرية كانت في انتظار مَخاضٍ جديد، يقضي على ظلالِ الجهالة المخيفة.

كأنها في انتظار حدثٍ جليلٍ يُغِيرُ على هذه العاداتِ القاسية، ويُغَيِّر شكلَ العالم ومَعالمه، ويقضي على الجاهلية.

كانت في انتظار هدايةٍ من رَحم الغيب تُغيِّر وجهَ العالم، وتقضي على ظلامِه الدّامِس وظلماته المخيفَة، وتُنيره بأنوار المحبَّة والعدلِ والسلام.

لقد تجلَّت حكمةُ الله تعالى حتى لا تستمرَّ البشريةُ في غَيِّها في هذا الصراع المدمِّر؛ لذلك فإنه تعالى برحمتِه وحنانه وجودِه وكرمِه ومنَّته أرادَ أن يُنقذ البشريةَ مِن نفسها، ويحدِّدَ لها الطريقَ السَّوي الذي يكفُل لها السلامةَ والأمان، والتقدمَ والازدهار، والنهوضَ والعمران، وهذا ما حدثَ بالفعل ببَعثة النبي الكريمِ سيدنا محمد عليه الصلاةُ والسلام؛ لإنقاذِ البشرية، فبدَّل خوفَهم أمنًا، وظلامَهم نورًا، وقسوتَهم رحمة، وجورَهم عدلًا، برسالةٍ عالميةٍ خاتمة.

---

(١) أبو الفضل أحمد بن محمد بن إبراهيم الميداني النيسابوري (ت: ٥١٨هـ): كتاب مجمع الأمثال، بيروت: دار المعرفة، جـ ٢، ص٤٣٩.

(٢) المرجع السابق، ص ١١٠.

واستطاعَ النبيُّ العظيم أن يُكَوّن أمةَ الإسلام، التي ترتبطُ بمنهج الله الحنيف، الذي خَلَقَ فيهم السلامَ النَّفسي والروحي، والإخلاص، ومراقبةَ الضمير والخوفَ مِن الله، ومخاطبةَ العقل، واحترامَ العلم، ومَنَّ اللهُ تعالى عليهم بالأمنِ والأمان وجعلَهم مِن أسبابه ومقوّماته، حتى أصبح الراكبُ يسير مِن صَنعاء إلى حضرموت لا يخافُ إلا الله والذئبَ على غنمِه، ومِن ثَمَّ أَمِنَ الناسُ مِن عدوانِ بعضهم على بعض، وتفرَّغوا للعلم ونَشر دعوة الحق، فأسَّسوا حضارةً زاخرة زاهرة، أضاءتْ جنباتِ العالم بثمراتِ قرائحهم.

لقد استطاعَ النبيُّ الكريم أن يُغَيِّر شكلَ العالم في وقتٍ قصير جدًّا، ومِن عجبٍ أنَّ بعضَ المستشرقين المنصفين والمفكرين الغربيّين يدركونَ القيمةَ العظمى لرسولنا العظيم ويَضعونَه في مقدمةِ عُظماء العالم والتاريخ، حتى قال الكاتبُ العالمي "برنارد شو" عن سيدنا محمد (صلَّى اللَّهُ علَيهِ وآلِه وسلَّمَ): "ما أحوجَ العالم إلى محمد بنِ عبد الله ليحلَّ مشكلاتِ العالمِ وهو يحتسي فنجانَ قهوة"، ويقول الأديبُ الروسي "ليو تولستوي" في كتابِه "حِكَم النَبي محمد": "ومما لا ريبَ فيه أنَّ النبي محمدًا كان مِن عظماء الرجال المصلحين الذين خدَموا المجتمعَ الإنساني خدمةً جليلة، ويَكفيه فخرًا أنه هدى أمةً بأكملها إلى نور الحق، وجعلَها تجنَحُ إلى السكينةِ والسلام، وتؤثرُ عيشةَ الزهد، ومنعَها مِن سَفك الدماء وتقديم الضَّحايا البشرية، وفتحَ لها طريقَ الرقي والمدنية، وهذا عملٌ عظيم لا يقوم به شخصٌ مَهما أوتيَ مِن قوَّة، ورجلٌ مثل هذا جديرٌ بالاحترام والإجلال"(٣).

العالمُ قُبيلَ البَعثة: قراءةٌ في التاريخ والجغرافيا

لقد كان العالمُ قبيلَ بَعثة النبي الكريم يسبحُ في ظلماتِ الجهالة، ويَتيه في بَيداء الضلالة، فالناسُ قد نأوا عنِ الأخلاق الفاضلة، وتفشَّى فيهم أوباءُ الشَّر والفساد، حيث كانت شبهُ الجزيرة العربية محصورةً بين دولتيْن كبيرتين: (الفرس – الروم)، وكانت هاتان الدولتان تتحكَّمان في العالم في ذلك العصر، وكان فيهما فسادٌ كبير، فبلادُ الفرس انتشرتْ فيها المجوسية وهي عبادةُ النار، وكانوا يعتقدون أنَّ للعالم إلهيْن: إلهَ الخير وإلهَ الشَّر، وقدِ انقسموا إلى مذاهبَ مختلفة، وكان لكلِّ مذهبٍ أنصارٌ يُعادون ويناوئون أنصارَ المذهب الآخر. أما بلادُ الروم فقد انقسموا إلى طوائفَ عدَّة ومتباينة(٤).

وقد كانتِ الحربُ بينهما سِجالًا، فأحيانًا ينتصر الفرسُ وينتزعون جزءً مِن أملاكِ الروم، وأحيانًا ينتصر الرومُ فينتزعون جزءً مِن أملاك الفرس(٥). وهكذا دَواليك.

جزيرةُ العرب آنذاك:

لم تكنِ الجزيرةُ العربية أسعدَ حالًا مِن غيرها وقتئذ، فلقد كانت تعيشُ في جهل مُطبق، وكان مجتمعُها الجاهلي يعجُّ بكثيرٍ مِن سيِّئ العادات: أصنام مَعبودة، وغارات مَشنونة، ودماء مَسفوكة، وأرحام مَقطوعة، وشاعَ فيها: شربُ الخمر، ولعبُ الميسر، والاستقسامُ بالأزلام، والتعاملُ بالربا الفاحش، ووأدُ البنات مخافة الفقر أو العار(٦)، والجمعُ بين الأختين في الزواج، وكانوا يتزوَّجون بزوجاتِ آبائهم إذا طلَّقوهن أو ماتوا عنهن، ناهيكَ عنِ انتشار المجون، والرِّق... إلخ، وكانوا يعيشون للعصبيَّة القَبلية، ويموتون لها، ويعدّون شربَ الخمر ضربًا مِن ضروب الكرم.

وعلى الرغم مِن هذه العادات السَّيِّئة التي يُنكرها العقلُ السليم فإنَّه قد كانت هناك بعضٌ مِن الأخلاق النَّبيلة، منها: الكرم، حيث كان الرجلُ يأتيه الضيفُ في شدَّة البرد والجوع وليس عندَه مِن المال إلا ناقتُه التي هي حياته وحياةُ

(٣) https://al-ain.com/article/tolstoy-prophet-mohamed-birthday

(٤) د/ عبد المقصود نصار، د/ محمد الطيب النجار: السيرة النبوية، الجزء الأول، الأزهر الشريف، ١٣٩٤هـ= ١٩٧٤م، ص٦.

(٥) المرجع السابق ص ٦، ٧، بتصرف.

(٦) محمد محمد الدهان: محمد (صلَّى اللَّهُ علَيهِ وسلَّمَ) أريجٌ من سيرته وقبسٌ من شريعته، دار الشعب، القاهرة، ١٣٩٤هـ = ١٩٧٤م، ص١١.

أسرتِه، فتأخذُه هزَّةُ الكرم، فيقوم ليذبحَها لضيفِه، وكانوا يُطعمون المساكين، ويوفونَ بالعهود، ويتَّصفون بعزَّة النفس، والحلمِ والأناةِ والتؤدَة... وغيرها(٧).

ولقد كانتِ العلاقةُ السائدة بين أفراد القبيلة الواحدة علاقةَ تَعاون وتضامن، بينما كانت علاقةُ القبيلة بالقبيلة الأخرى –في الغالب– علاقةَ كراهية وعَداوة؛ إذ كانت كلُّ قبيلةٍ تحبُّ أن تمتاز من غيرها بأن تكون أكثرَ مالًا، وأعظمَ جاهًا، وقد أدى ذلكَ إلى قيام النزاعات والحروب الضَّروس بينهم؛ مما جعل أمةَ العرب مفكَّكة الأواصِر، مهدَّدةً بالفناء والزوال؛ لولا أنْ تَداركها اللهُ –تعالى– برسالةِ الإسلام.

التجارةُ والإغارة والحاجةُ الماسَّة إلى معاهدة "إيلاف قريش":

كانتِ التجارة عصبَ حياةِ العرب، فيها يعملون، ومِن أجلها يسافرون، ومِن ريعِها يعيشون...وكانت تجارتُهم وقوافلهم مهدَّدةً على الدوام.

حيث كان بين الجنوبِ والشمال مساحةٌ شاسعة تسكنُها إما:

- قبائل تأنَفُ مِن الخضوع لنظامِ ملكيّ أو دولة خارجية مثلَ قريش في مكة، والأوس والخزرج في المدينة.
- أو تجمُّعات للأعراب يعيشون في ضيق حال؛ مما دفع بعضَهم لقطع الطرق على القوافل.

ذلك الوضعُ كان له أثرُه السَّلبي على أمان القوافل التجارية، وأدَّى لتَعرُّض بعضِ المناطق لانقطاع بعضِ البضائع والسلع عنها؛ نتيجةَ سيطرة الطَّرف المحارب لها على مَعابرها.

وبالتالي كان لا بدَّ مِن طرفٍ يستطيع أن "يؤلّف" كلَّ الأطراف؛ لضمان استمرار حركة التجارة وعدمِ تأثُّرها سلبًا بالوضْع العام. ومن هنا جاءتْ فكرةُ الإيلاف في النِّصف الثاني مِن القرن الخامس الميلادي(٨).

لقد سَعوا إلى إيجاد معاهدةٍ تضمنُ لهم سلاسةَ الحركة وسلامةَ تجارتهم وقوافلهم مِن الإغارات، فكان إيلافُ قريش الذي صوَّره القرآنُ الكريم، يقول الحقُّ تبارك وتعالى: (لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ. إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ. فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ. الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ) (سورة قريش).

إنَّ المخاطرَ التي تكتنفُ عمليةَ التجارة بين الشام واليمن دفعتْ قريشًا للقيام بتأمين الطريق لتِجارتها وتجارة القبائل الأخرى. فكانت فكرةُ "الإيلاف"(٩)؛ وهو عبارة عن مجموعةٍ مِن العهود السياسية التِّجارية، وحلفٌ قبَلي واسعٌ يستهدف تأمينَ القوافل في رحلة الشتاء التي تتَّجه لليمن، ورحلة الصيف المتَّجهة للشام، وضمنَ هذه الترتيبات كانتِ القبائلُ تؤدّي واجبَ الاستضافة والحماية لقوافل قريش وبقيَّة التجار الملتحقين بها مِن القبائل الأخرى.

إنَّ الإيلافَ، والترتيباتِ القائمةَ حوله، تدلِّلُ على وجود وعي لقريش على غيرها مِن القبائل العربية، وقدرتها على أداءِ دور مهمّ لإحلالِ السلام بين قبائل العرب، وهو ما أعطاها ورجالها مكانةً بين القبائل العربية(١٠).

ولقد سارعتْ بعضُ القبائل إلى طلب الدخول في "الإيلاف"(١١) أو الاستفادة منه حتى وإن لم تكن واقعةً على طُرق التجارة المعتادة؛ طمعًا منها في الربح، والاستفادة مِن حماية قوافلها خلالَ مرورها بمناطق "الإيلاف"، ففتحَت

---

(٧) راجع: صفي الرحمن المباركفوري: الرحيق المختوم، دار إحياء التراث، ص٤٢ وما بعدها، د/ عبد المقصود نصار، د/ محمد الطيب النجار: السيرة النبوية (مرجع سابق)، ص ١٠ وما بعدها.

(٨) وليد فكري: إيلاف قريش"، الاتفاقية التي غيّرت خريطة المنطقة وتاريخ العرب.

(٩) لمزيد من المعلومات، يراجع: د/ محمد كمال إمام: نظرية الإيلاف في الفقه الإسلامي، بحث ضمن كتاب: الإسلام وحوار الحضارات، العدد الثاني من سلسلة فكر المواجهة، القاهرة: رابطة الجامعات الإسلامية، ٢٠٠١م، ص ١٤٩-١٥٢.

(١٠) ما هو إيلاف قريش؟

بذلك طُرقًا وأسواقًا جديدة. وارتفع في هذه الظروف نفوذُ القرشيّين إلى حدِّ أنه يقال: إنَّ المسافر على رأس قافلة كان يَكفيه قولُه إنه مِن "أهل الحرم".

الحالةُ السياسيةُ والدينيةُ:

أما الحالةُ السياسية فكانت أسوأ حالًا، وكان الناسُ في عمايتهم يتخبَّطون؛ إذ انقسمَ الناسُ بين سادةٍ وعبيد، أو حكامٍ ومحكومين، فالسادةُ لهم كلُّ الغُنْم، والعبيدُ عليهم كلُّ الغُرْم، وكانتِ القبائل داخلَ الجزيرة مفكَّكةَ الأوصال، تغلبُ عليها النزاعاتُ العنصرية.

وأما عنِ الحالة الدينية فكان العربُ قديمًا مُتمسّكِين بدين الخليل إبراهيم عليه السلام، وظلُّوا على هذه الحال حينًا مِن الزمان، حتى طال عليهم الأمَد، ونَسوا حظًّا مما ذُكِّروا به، فبدَّلوه وغيَّروه وقلبوه وخالَفوه، واستبدلوا بالتوحيدِ شركًا، وباليقين شكًّا، وابتدَعوا أشياء لم يأذنْ بها الله(١٢).

وتحوَّلوا إلى عبادة الأصنام، ثمَّ كثُر فيهم الشرك، وانتشرتِ الأوثانُ في الحجاز، وكانوا يَعكُفون عليها ويَلتجئون لها، ويحجّون إليها، ويطوفونَ حولها، ويسجدون لها، ويتذلَّلون عندها، ويَنذُرون لها، ويتقرَّبون إليها بأنواعٍ مِن القَرابين؛ حتى صار الشركُ وعبادةُ الأصنامِ أكبرَ مَظهر مِن مظاهر دين أهل الجاهلية، الذين كانوا يزعمونَ أنَّهم على دينِ إبراهيم، ويعتقدون أنَّ هذه الأصنام تُقرّبهم إلى الله تعالى، وتوصلُهم إليه، وتَشفع لهم عنده، وفي ذلك يقول الحقُّ تبارك وتعالى على لسانهم: (..مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى..) (الزمر: ٧) (١٣).

وعلى الرغم مِن التخبُّط الذي عاشوا فيه، فإنَّه قد ظلَّ فيهم بقيةٌ مِن دين إبراهيم (عليه السلام)، مثل: تَعظيم البيت، والطَّواف به، والحج والعمرة، وإهداء البُدن... إلخ، بيدَ أنهم ابتدَعوا في ذلك بدعًا ما أنزل اللهُ بها مِن سلطان... وكثُرت مَعاصيهم، وانتشرتْ فيهم الخرافات(١٤). وبالتالي كانتِ الإنسانية كلُّها في ذلك الوقت تائهةً في مَجاهل الحياة، غارقةً في بحار الجهل، مُمعنةً في الغيِّ والسَّفه، سادرةً في الجهل والعَمَه(١٥).

مولدُ النّور:

وفي هذا الزمان شاء الله الحكيم أن ينبثقَ نورُ سيدنا محمد (صلَّى اللَّهُ علَيهِ وآلِه وسلَّمَ)، ونورُ الإسلام (...قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ) (المائدة: ١٥)؛ ليَقضي على هذه الأوهام، وعلى هذا الرُّكامِ مِن هذه العقائد، والفلسفات، والخرافات، والأساطير الفاسدة.

---

(١١) وتشير المصادر إلى أن هاشمًا بن عبد مناف بن قصي توصل إلى اتفاق مع الحاكم البيزنطي بالشام يجيز لتجار قريش دخول بلاد الشام بتجارتهم، ويخفف المكوس (الجمارك) المفروضة عليها. اتفاق مشابه أجراه عبد شمس بن عبد مناف مع النجاشي بالحبشة. بينما قام المطلب بن عبد مناف بالاتفاق مع قبائل اليمن. وهذه الاتفاقيات كانت تحتاج إلى ضمان عدم هجوم القبائل العربية على القافلة؛ لذلك قامت قريش بحمل ما يتوافر لدى هذه القبائل من تمر وما شابهه وباعته في الشام أو اليمن، ودفعت ثمنه للقبائل مع الربح نظير حمايتهم للقافلة المارة في حمى القبيلة. كما أنها استأجرت أبناء القبائل لحماية القوافل، وسمحت لهم بالدخول إلى مكة في أمان لأنها البلد الأمين، والمعروف أن مكة واقعة في واد غير ذي زرع. أي لا تعتمد على الزراعة كما المدينة المنورة. فالله أطعمهم من جوع من رحلتي الإيلاف. راجع: د/ محمد عقل: إيلاف قريش، ١٩ مايو ٢٠١٨م.

(١٢) انظر: تفسير ابن كثير، عند تفسيره لقول الله تعالى: (هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ) (الجمعة:٢).

(١٣) صفي الرحمن المباركفوري: الرحيق المختوم (مرجع سابق)، ص ٣٣-٤٢ وما بعدها.

(١٤) المرجع السابق، ص٤٠، ٤١.

(١٥) توفيق محمد سبع: نفوس ودروس في إطار التصوير القرآني، جـ ١، مجمع البحوث الإسلامية، جمادى الآخرة ١٣٩١هـ / أغسطس ١٩٧١م، ص١٣٤.

لقد مَنَّ اللهُ تعالى على البَشرية بخيرِ الأنام ومِسكِ الختام سيدِنا محمد (عليه الصلاة والسلام) الذي جعله اللهُ نورًا للإنسان.. ونورًا للأوطان.. ونورًا للأكوان، نورًا يمشي على الأرض؛ يُعلِّم الجاهل، ويُرشِد الحائر، ويَهدي الضَّالَّ إلى طريق الله... ويفجِّر ينابيعَ الرحمة في القلوب ويُترجمها إلى سلوكياتٍ في جميع الميادين، ويُرسي دعائمَ العدل، ويَدُق أجراسَ الحرية في آذانِ التاريخ، ويَنْشر السلامَ والمحبَّة، ويُحيي النفوسَ بعد أن ذاقتْ مرارةَ الذلِّ والاضطهاد في ظلِّ قوانين العبودية، ويقود بناءَ الأمة الإسلامية؛ فيضربُ المثلَ الأعلى في مواصفات القيادة المثالية الرَّشيدة للأمم والشعوب(١٦)، ويَغرس أشجارَ النبل والإخاء والحبِّ في جنَبات المجتمع، ويحرِّر العقولَ والقلوبَ والنفوسَ مِن كلِّ قيود التعلق بغير الله، ويُظهره اللهُ للعالمين كأعظمِ مُصلحٍ نشَرَ أرقى المبادئ والتشريعات والقوانينِ السياسية والاقتصادية والاجتماعية؛ لتَحقيق رقيِّ المجتمعات وفقَ منهج الله.

يقول تعالى: (لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ) (آل عمران: ١٦٤).

وقال (عزَّ وجلَّ): (هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ (١٧) رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ) (الجمعة:٢).

وهذه الآيةُ هي مِصداقُ إجابة الله لخليلِه إبراهيم (عليه السلام) حين دعا لأهل مكَّة أن يبعث اللهُ فيهم رسولًا منهم، يَتلو عليهم آياته، ويُزكيهم، ويُعلمهم الكتابَ والحكمة.

فجاءَ الإسلامُ بنوره الوضَّاح الخلَّاق ليُنشئ أمةً وحضارةً ذات طابعٍ مُتميز متفرِّد؛ لقيادةِ البشرية، وتحقيقِ منهج الله، وإنقاذِ البشرية مما كانت تُعانيه مِن الظُّلم والخوف والمناهج والتصوراتِ الضالة...(١٨).

واستطاعَ النبيُّ الحكيم أن يُغيِّر معالمَ الدنيا، ويقضي على الحروبِ والصِّراعات التي راحَ ضحيتَها كثيرٌ مِن الناس، ويُغيرُ على مَفاهيم الاستعلاء والأنانية التي كانتْ سائدةً ومُنتشرة بالجزيرة العربية عبرَ قرونٍ مَديدة، ويحولهم مِن هذا كلِّه إلى الإيمان، والرحمة، والمحبة، والتَّسامح، والإيثار، والسلام الذي عمَّ الدنيا كلَّها بمجيئه (صلَّى اللَّهُ علَيهِ وآلِه وسلَّمَ).

وهكذا بذَر الرسولُ الرحيم بذورَ الخير والرحمةِ في قلوب الناس، ويبسطُ الإسلامُ جناحيْه على مناطق كثيرة، ويؤسِّس المسلمون حضارةً عظيمة، ببركة تَوفيق الله تعالى لرسوله العظيم الذي كان– وما يزال وسَيَظل– أعظمَ عظماء الدنيا بشهادةِ كثيرٍ مِن المنصفين مِن المخالفين.

يقول د/ محمد عبد الله دراز: "إنَّ رسالَة الإسلام حين بسطتْ جناحيها في أقلّ مِن نصف قرنٍ على نِصف المعمورة، كانت كأنما أنشأته خَلقًا آخر، لقد بدَّلتْه مِن أوطانِه المتفرِّقة وطنًا واحدًا، ومِن قَوانينه المختلفة قانونًا واحدًا، ومِن آلهتِه المتعدِّدة إلهًا واحدًا، لقد نفَذَت إلى جوهر نفسِه فحوَّلته تَحويلًا، وبدَّلت أسلوبَ تفكيره تبديلًا، وإنَّ هذا النجاح ليس مردُّه إلى سببٍ واحدٍ ولا فضيلة واحدة؛ بل لقد تَضافرت عليه: شخصيةُ الداعي، ومنهاجُ دعوته، وشخصيةُ الأمَّة التي تلقَّتْ تلك الدعوة، وطبيعة الدعوة نفسِها، ومِن وراء ذلك كلِّه كلاءةُ الله ورعايتُه لهذه الرسالة حتى بلغتْ كمالها. أما صاحبُ الرسالة فقد جمعَ خِلالًا، كلُّ واحدة منها كانت عنصرًا فعَّالا في هذا النجاح، خلالًا

---

(١٦) راجع: خديجة النبراوي: محمد (صلَّى اللَّهُ علَيهِ وسلَّمَ) الرحمة المهداة كما لا يعرفه الآخرون، القاهرة: دار العواصم.

(١٧) الأميون هم: العرب وتخصيصهم بالذكر لا ينفي من عداهم، ولكن المنة عليهم أبلغ، قال تعالى: (قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا...) (الأعراف:١٥٨)، وقوله: (وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ) (الأنعام: ١٩) إلى غير ذلك من الآيات الدّالة على عموم بعثته (عليه الصلاة والسلام) إلى جميع الخلق.

(١٨) ناصر بدر ملك: وسطية الحضارة الإسلامية– أساسياتها وإسهاماتها ومستقبلها، المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، الإيسيسكو، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.

نعدُّ منها ولا نعدِّدُهَا، ونرسمُ شيئًا مِن جوانبها ولا نحدُّها: صبر ومصابرة، وجدّ ومثابرة، وحرصٌ على بلوغ الغاية، والتزامٌ لأدقّ حدود الصدقِ في الوسيلة وفي الغاية، تلطُّفٌ في الدعوة، وقصدٌ في الحجة، وتعليمٌ بالأسوَة والقدوة، وتأديبٌ باللمحة والنظرة، وطهرٌ في السِّيرة والسَّريرة، لا حقدٌ ولا ضغينة، ولا ختْل[١٩] ولا مُوارَبَة، سخاءٌ بما في اليد، وزهدٌ فيما بيدِ الناس، تضحيةٌ بحظوظ نفسِه، وتنازلٌ عن حقوق شخصه، أما في تبليغ الرسالة وإقامة العدالة، فعزيمةٌ متوفِّرة لا تَني، وصلابةٌ في الحقّ لا تَنثني. هذه الخلالُ الفُضلى، وأمثالها وأمثالُ أمثالها تنبعُ في نفس الرسول الكريم مِن ينبوعِ ذي ثلاثِ شُعب: الإيمان، والحب، والأمل.. إيمانٌ بقدسيَّة الرسالة وضرورة حَملها، وحبٌّ للإنسانية واهتمامٌ بإنقاذها، وأملٌ في نجاح الدعوة وبلوغِها أقصى غايتها. نعم، إنَّ هذا القلبَ الذي يمتلئ إيمانًا وحكمةً يفيض في الوقت نفسِه حنانًا ورحمة، ويُطالع في الأفق دائمًا أملًا باسمًا في النجاح والفَلاح.. لا نقول: إنَّه يفيضُ رحمةً بأتباعه وحَسب، فإنه وإن كان لأتباعِه مِن رحمتِه النصيبُ الأوفَر، فهو كما وصفَه اللهُ رحمةٌ للعالمين، لأعدائه وأوليائه أجمعين، حريصٌ على خَيرهم وسَعادتهم، مُشفقٌ على عنَتِهم وشِقْوتهم. (لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ) (التوبة: ١٢٨)، ولا أقول: إنه كان يداعبُ أملًا في نجاحٍ جزئيّ يخصُّ عشيرتَه الأقربين، أو يخصُّ أمَّ القرى ومَن حولها، ولكنه كان يحملُ أملًا في نجاحٍ محيطٍ شاملٍ، بتنظيم البَشرية كلها.. ألم ترَ كيف كان كلُّ انتقاصٍ مِن محيط هذا النجاح انتقاصًا مِن طيبِ نفسِه ونعيمها، وزيادةً في أحزانها وآلامِها؟ هذا القلبُ الرحيم كيف يطيبُ له عيشٌ وهو لا يزال يرى طائفةً مِن إخوته في الإنسانية يعيشونَ في ظُلمة الضَّلالة والجهالة، أو في حمأةِ الفساد والرَّذيلة، أو تحتَ نيرِ العبودية لغير الله؟!"[٢٠]. ويا لَه مِن قلبِ رحيمٍ حنونٍ بلغَ شأوَ الرحمة والرفق بالعالمين!.

وهكذا كانتِ البشريةُ في انتظار سيدنا محمد (صلَّى اللَّهُ علَيْهِ وآلِه وسلَّمَ)؛ لينقذَها، وسيظلُّ يُنقذُها إلى أبدِ الآبدين بمنهج الله تعالى الذي يذخَرُ بالعلاج الناجع لمشكلاتِ الإنسانية التي عانتْها مِن قبْل، وتُعانيها الآن، وتلك التي سوف تُعانيها في المستقبليْن القريب والبعيد.

وما أفدحَ الخسارة التي تكبَّدتْها البشرية- ولا تزال- حين تجاهلتِ الشرائعَ السَّماوية وعلى رأسِها رسالةُ الإسلام التي جاء بها خيرُ الأنام ومِسكُ الختام؟! فهلْ آنَ الأوانُ للبشرية أن تَغترف مِن أنوار الوحي الشريف المعصومِ الذي جاء به النبيُّ الكريم؟!.

اللَّهُمَّ تَقَبَّلْ مِنَّا الصِّيَامَ وَالقِيَامَ وَصَالِحَ الأَعْمَالِ يَا رَبَّ العَالَمِينَ... اللَّهُمَّ أَدْخِلْ عَلَيْكُمْ وَعَلَى أَهْلِيكُمْ وَأَنْجَالِكُمْ وَأَحْفَادِكُمْ وَذَرَارِيكُمْ أَجْمَعِينَ الفَرَحَ وَالسُّرُورَ وَالحُبُورَ، وَالسَّعَادَةَ العَامَّةَ التَّامَّةَ الكَامِلَةَ الشَّامِلَةَ الدَّائِمَةَ المُسْتَقِرَّةَ المُسْتَمِرَّةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ... نَسْأَلُ اللَّهَ السَّلَامَةَ لَنَا وَلِأَوْلَادِنَا، وَلِمُجْتَمَعِنَا وَلِشَعْبِنَا. اللَّهُمَّ احْفَظْ مِصْرَ شَرْقَها وَغَرْبَها، شِمالَها وَجَنوبَها، طُولَها وَعَرْضَها وَعُمْقَها، بِحارَها وَسَماءَها وَنيلَها، وَوَفِّقْ يا رَبَّنا قِيادَتَها وَجَيْشَها وَأَمْنَها وَأَزْهَرَها الشَّرِيفَ، وَعُلَماءَها، وَاحْفَظْ شَعْبَها، وَبِلادَ المُحِبِّينَ يا رَبَّ العالَمِينَ. وَصَلِّ اللَّهُمَّ وَسَلِّمْ وَبارِكْ على سَيِّدِنا وَمَوْلانا مُحَمَّدٍ، وَعلى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ.

خادم الجناب النبوي
خادم الدعوة والدعاة د/ أحمد علي سليمان
عضو المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية
واتس آب: ٠١١٢٢٢٢٥١١٥ بريد إلكتروني: drsoliman٥٥٥٥٥@gmail.com
متابعة الصفحة الرسمية، وعنوانها: (الدكتور أحمد علي سليمان)؛ يضمن لك كل جديد https: //www.facebook.com/drahmedalisoliman/

---

(١٩) خَتَلَ: لجأ إلى طُرُق مُلْتوية فيها مُوارَبة لبُلوغ الغاية. ختل: جحر الأرنب، وهو موضع يستتر فيه. ختّال صيغة مبالغة من خَتَلَ: كثير الغَدْر والخِداع. راجع القاموس المحيط وغيره.

(٢٠) د/ محمد عبد الله دراز: نظرات في الإسلام، هدية مجلة الأزهر، عدد صفر ١٤٤٣هـ/سبتمبر – أكتوبر ٢٠٢١م، ص ١٩ – ٢٢.